

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية أصول الدين
قسم الكتاب والسنة
السنة الثانية (نظام L.M.D)

مادة: الحديث الموضوعي

إعداد الدكتور: نور الدين بن يربح

السنة الجامعية: 2013-2014م

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد : فإنه في ظل حالة الاستضعاف التي تعاني منها أمتنا اليوم ، وتراكم صور التخلف والرّداءة طولا وعرضا ، تتوق الآمال إلى يوم يُرفع فيه عنّا هذا الغبن ونُخرج فيه من دائرة الوهن إلى عالم القوّة والعزّة والقيادة والرّيادة...

ولما كانت السنّة النبوية أحد رُكَيّ الخلاص الذي يلوذ ويستمسك به المسلمون حتّى لا يزيغوا عن المحجّة البيضاء التي تركنا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد جاءت هذه المذكرة الثانية لمادّة الحديث الموضوعي لتتناول بالدراسة بعض المواضيع التي نرى حاجة ماسّة للمسلمين المعاصرين في أن يمعنوا في دراستها وتحليلها ، ومن ثم العمل على تمكينها في حياتهم لتغدو عامل بناء في كيان هذه الأمة.

ولذلك رأينا أنّه من الواجب الحديث عن بعض السنن الغائبة أو المغيبة حتى عن أدبيات كثير من المسلمين ما بالك بأن تكون لهم منهج حياة يُعمل على أن تكون احد وجوه العبوديّة والإقتداء الحق الذي يوصلنا إلى مقام الاستجابة الحقة لنداء الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } الأنفال 24

فجاء موضوع: قيم العمل والإتقان في ضوء السنّة النبوية، ثم موضوع: التخطيط في مدرسة النبوة ، ثم موضوع : الشورى في مدرسة النبوة أملا في بيان حقيقة مؤلمة : أن هناك ثغورا في حياتنا بقيت دون مرابطة قرونا من الزمن ولا زلنا إلى الآن نُؤتى منها ، وتدفع ضريبتها أجيالنا المتعاقبة ، لا من أموالها وخيراتها المنهوبة فحسب، بل من هويتها وانتمائها وولائها لدينها، ضريبة ندفعها لأولئك الذين أبدعوا في عملية المسخ الحضاري لهذه الأمة المجيدة سلفاً ، المسكينة حاضرا...!

الدكتور: نور الدين بن يريح

قيم العمل والإتقان في ضوء السنة النبوية

- روى البخاري في صحيحه عن حكيم بن حزام قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ثم قال : (يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى)

فقال حكيم : فقلت يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا ، فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه ، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئا ، فقال عمر : إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم أي عرض حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه ، فلم يزرأ حكيم أحدا من الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفي .

التخريج: أخرجه البخاري ومسلم¹

- روى البخاري في صحيحه عن المقدم رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده) .

التخريج : أخرجه البخاري²

- روى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة) .

التخريج : أخرجه البخاري ومسلم³

¹ - صحيح البخاري - كتاب: الزكاة - باب: الاستغفار عن المسألة (1379)

وصحيح مسلم - كتاب: الزكاة - باب: أن اليد العليا خير من اليد السفلى (1717) 0

² - صحيح البخاري - كتاب: البيوع - باب: كسب الرجل وعمله بيده (1931) 0

³ - صحيح البخاري - كتاب: الحرث والمزارعة - باب: فضل الزرع والغرس (2152)

وصحيح مسلم - كتاب: المساقاة - باب: فضل الغرس والزرع (2900) .

- روى الإمام البيهقي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) .

وفي رواية : (إن الله تعالى يحب من العامل إذا عمل العمل أن يحسن) .

التخريج : البيهقي في شعب الإيمان¹

- روى مسلم في صحيحه عن أبي يعلى شداد بن أوس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته) .

التخريج : أخرجه مسلم وأبو داود²

الشرح :

لم يكن العلم في نظر المسلمين حلية يتزين بها الصفوة والنخبة منهم وإنما كان العلم عندهم هو الأصل الذي يبني عليه (العمل) . فهو (أصل الأصول ، ... وأصل العمل ، و أن العمل لا يتصور إلا بعلم بكيفية العمل)³ .

و لذلك فإنه لا يتصور هناك مسلم بدون عمل ، فصورة المؤمن المتسك العاجز صورة غير إسلامية وهي بعض رواسب تراث الكهانة التي سبقت الإسلام ، ولذلك أيضا لم يكن الزهد والورع والتقوى انقطاعا عن العمل ، وإنما هو بعض مواصفات العمل الصالح تكسبه طابعه وتميزه عن العمل السوء⁴ .

إن فلسفة الحياة في الإسلام تعود مرجعيتها إلى المصدرين الأصليين : القرآن والسنة اللذان يؤكدان أن الحياة والعبادة ، والدنيا والآخرة لا ينفصلان .

¹ - رواهما البيهقي في شعب الإيمان (335/4) ، ورمز لهما السيوطي بالضعف ، أنظر الجامع الصغير للسيوطي (84/1) ، وصحهما الألباني في صحيح الجامع الصغير (383/1) و(174/2) .

² - صحيح مسلم - كتاب : الصيد والذباح - باب : الأمر بإحسان الذبح (1458/3)

وسنن أبي داود - كتاب : الأضاحي - باب : في النهي أن تصير البهائم (1/3) .

³ - ميزان العمل لأبي حامد الغزالي - تحقيق سليمان دينا - دار المعارف (328) .

⁴ - مقومات الشخصية الإسلامية للدكتور ماجد عرسان الكيلاني - كتاب الأمة (44) .

يقول تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } القصص 77

أي : (استعمل ما وهبك الله من النعمة في طاعة ربك والتقرب إليه، ولا تنس نصيبك من الدنيا مما أباح الله فيها من المأكل والمشرب والمسكن والمناجح)¹ .

يقول الإمام البخاري رحمه الله: (كُتِبَ عَنْ ثَمَانِينَ رَجُلًا لَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا صَاحِبُ حَدِيثٍ، كُلُّهُمْ يَقُولُ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ)² .

و قد ورد لفظ العمل في القرآن الكريم في (359) موضعا ، وفي جميع هذه المواضع يلحق العمل بإحدى صفتين اثنتين : إما صفة الصلاح أو صفة السوء ، فيوصف العمل بأنه (عمل صالح) أو (عمل سوء) ، وهو الترجمة العملية والتطبيق الأكمل للعلاقات التي حددتها فلسفة التربية الإسلامية بين الإنسان والخالق ، والكون والحياة والإنسان والآخرة³ .

لقد أنكر الإسلام بدعة " الرهينة " التي عطلت الحياة وعملت على تخريج أفواج من العجزة والسليبين مقنعين بقناع التبتل والعبادة !

قال تعالى : {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } الحديد 27

و المعنى أنهم : (ابتدعوا عبادة من قبل أنفسهم فحملوا أنفسهم من المشقات من الامتناع عن المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع)⁴

و قد جاءت السنة النبوية الشريفة لتربي المسلم على روح العمل وتحته على الكسب والجد ، فحدد صلى الله عليه وسلم مراتب الأيدي فجعل منها : عليا وسفلى ، وجعل أفضل الأمم أمة اعتمدت على نفسها ، وخير الطعام طعام أكله الإنسان من عمل يده .

1 - تفسير ابن كثير (399/2) .

2 - صحيح البخاري .

3 - مقومات الشخصية المسلمة (42) .

4 - تفسير القرطبي (265/17) .

قال ابن حجر: (وفي الحديث فضل العمل باليد وتقديم ما يباشره الشخص بنفسه على ما يباشره بغيره ، والحكمة في تخصيص داود بالذكر أن اقتصره في أكله على ما يعمل به بيده لم يكن عن حاجة لأنه كان خليفة في الأرض كما قال تعالى ، وإنما ابتغى الأكل عن طريق الأفضل ، ولهذا أورد النبي صلى الله عليه وسلم قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد)¹ .

ومن هنا فإن الإسلام جعل العمل المعيار الحقيقي في الحياة فكل مغنم أو مال لا يكون ناتجا عن جهد بشري فكري أو عضلي يبدل فهو مرفوض - عدا المسائل التي حددتها الشريعة الإسلامية كالميراث والهبة وغيرها - ، لأن الإنسان المستخلف يثبت بعمله حقيقته ودوره وإنسانيته ، ولذلك فإنه حرّم عليه التمتع بثمرات أعمال غيره لأن ذلك يؤدي إلى الاستغلال وتعطيل الطاقات ونقص العمل وإلحاق أضرار جسيمة بحركة التقدم الحضاري² .

وتفعيلا لدور القدوة في تربية الأمة وإعدادها - قيادة وجندا - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نموذج الإنسان العامل والمسلم الفاعل فكانت حياته كلها جهادا وعملا ، فكان لا يستنكف حتى عن أبسط الأعمال إذ كان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب شاته ، ولما سئلت عائشة رضي الله عنها : (ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في أهله ؟) قالت: (كان في خدمة أهله)³ .

و لم يكن صلى الله عليه وسلم يعزل نفسه عن حركة الأمة في أعمالها ونشاطاتها ، ، ولو قمنا بتتبع الخطاب القرآني ومواضع توجيهه الأمة نحو العمل بمختلف أنواعه ، ثم قمنا بعملية استقراء - وإن لم يكن كاملا - للحياة النبوية والسنة الشريفة لوجدنا الترجمة العملية للخطاب القرآني فيما وجهه الله تعالى تكمن فيما طبقه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

و قبل التفصيل في هذا الجانب المهم بتوضيح الرؤية الإسلامية (العمل) يجب التأكيد على ملاحظتين هما :

¹ - فتح الباري (4/259-26) .

² - منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام للدكتور محسن عبد الحميد (116) .

³ - صحيح البخاري - كتاب الأذان - باب: من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة .

أولاً : أن القرآن الكريم ليس كتاب (اقتصاد) يرجع إليه في فروع وجزئيات هذا الجانب من الحياة

- وكذلك السنة النبوية الشريفة - وإنما هو كلام الله الذي جعله لنا منهج حياة ، وعلى ضوء توجيهاته تشق الأمة طريقها نحو البناء الحضاري بإعمار هذا الكون وتحقيق الاستخلاف فيه .

ثانياً : أن ذلك لن يتم ما لم يتخلص المسلمون من سلوك جادة (الظاهرية الحرفية) في تعاملهم مع النصوص الشرعية - وخاصة النبوية - بل يتم بتجميع أسباب الفهم وإدراك المقاصد الشرعية وحسن التنزيل على الواقع حتى تحقق الاستجابة الحقة بقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } { الأنفال 24

ونعود إلى تفصيل الحديث في دعوة القرآن إلى العمل وترجمة السنة النبوية لذلك عملياً :
إن من روعة هذا الدين أنك باطلاعك على مصدري أحكامه (القرآن والسنة) تجد أنك لا تتطلع على (كلمات) تقرأ ، أو (آيات ، وأحاديث) تتلى ، بل تجدك تتطلع على (حياة) تموج بكل حركتها ، ومن أمواج هذه الحركة الحياتية دعوة القرآن الكريم إلى العمل والمهن بمختلف أنواعها سواء من خلال الحديث عنها مباشرة ، أو بضرب الأمثلة المستمدة من تلك الحرف تارة أخرى أو بالحديث عن مكونات تلك الحرف والمهن ، كل ذلك في نسق قرآني بديع يؤكد للمسلمين وللبنية أن القرآن هو (منهج حياة) لمن رام أن يستجيب لله ورسوله !¹

وهذه نماذج عن بعض الأعمال :

العمل الزراعي:

لفت القرآن الكريم أنظار المسلمين إلى صورة من صور حياة الأمم التي سبقتهم ، فذكر من بين ما ذكر أنهم كانوا أهل زراعة ولكن الله أخذهم لكفرهم لما كفروا .

¹ - إعداد الكفاءات وحسن توظيفها في ضوء السنة النبوية للدكتور نور الدين بن يربح (6).

قال تعالى : {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } الروم 9 .

و المعنى: (أولم يسيروا في الأرض فينظروا ببصائرهم وقلوبهم كيف كان عاقبة من قبله ، كانوا أشد منهم قوة ، لأنهم قلبوا الأرض للزراعة وعمروها أكثر مما عمرها هؤلاء ، فلم تنفعهم عمارتهم ولا طول مدتهم)¹

و دعاهم إلى استنبات الأرض وزراعتها ، قال تعالى : {لَوَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ } 33 { وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن تَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ } 34 { لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ } 35 { يس .

ونهاهم عن إهلاك النبات وقطع الأشجار وعد ذلك من سلوك المنافقين المبعوضين عند الله تعالى فقال : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ } 2.4 { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ } 2.5 { البقرة .

بل جعل من دلائل الإيمان: التأمل في خلق الله مما أخرج من الأرض وعد ذلك من سلوك المؤمنين فقال تعالى : { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ } 24 { أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا } 25 { ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا } 26 { فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا } 27 { وَعَبْنَا وَقَضَبْنَا } 28 { وَزَيَّنَّا وَخَلَّلْنَا } 29 { وَخَدَاتِقَ غُلْبًا } 30 { وَفَاكِهَةً وَأَبًّا } 31 { مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } 32 { عبس .

و ذكرهم بالوسائل التي تساعد في إتمام العمل الزراعي ، فذكر منها :

الرياح : لما لها من دور في تلقيح النبات فقال تعالى { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ } 9 { فاطر

و قال : { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ

¹ - تفسير القرطبي (59/14)

تَذَكَّرُونَ {57} وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ
الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ {58} { الأعراف

المياه : بأنواعها :

أ - المياه السطحية : وهي التي توجد بالأهوار والبحيرات العذبة { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ
وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِي وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِوَجِينَ اثْنَيْنِ يُغِشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ {3} { الرعد .

ب - المياه الجوفية : وهي التي تستقر تحت الأرض مثل الآبار والعيون { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُصْفراً ثُمَّ
يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ { الزمر 21

ج - مياه الأمطار: وهي التي تسقي الأرض عند نزولها { وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً
فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ {9} وَالتَّحْلِ بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ {1.} { ق

الأرض : التي مهدها الله تعالى لتكون مستقر الإنسان ومصدر رزقه { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى
{ طه 53

و استكمالا لحياة العمل الزراعي يشير القرآن الكريم الى بعض عناصر البيئة الزراعية ، فذكر:
الأغنام : { وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ
شَاهِدِينَ {78} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ
وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ {79} وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ
شَاكِرُونَ {8.} { الأنبياء 6

الإبل : { هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَدَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ { الأعراف 2

البقر : { أَفَتَنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ
يَابِسَاتٍ { يوسف 46

وذكر بشمار هذا العمل الزراعي فذكر الأصول والفروع :

فمن الأصول ذكر:

الشجر: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} النحل 1.
{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا} أَلِلَّةٌ مَعَ اللّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} النمل 6.

النخل : {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ} ق 1.

{وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} النحل 67

ومن فروعها وثمارها ذكر :

الحب : { ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا } 26 { فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا } 27 { عِيس } 28

{ مَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مَعَهُ حَبَّةٌ } البقرة 261

العنب : { وَعِنَبًا وَقَضْبًا } عيس 28 ، { وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ } 34 { لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ } 35 { يس }

التين والزيتون : { وَالتَّيْنِ وَالتَّيْتُونَ } التين 1 .

الفاكهة : { فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } المؤمنون 19

الزهرة : ذكرها إشارة { وَلَا تُمَدِّدْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى } طه 131

الوردة : ذكرها أيضا إشارة { فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ } الرحمن 37

وتظهر الترجمة العملية للدعوة القرآنية إلى العمل الزراعي من خلال حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إيجاد قاعدة زراعية في المجتمع الإسلامي ، ويتجلى ذلك من خلال

دعوته صلى الله عليه وسلم الواضحة إلى يوحى ظاهر خطابها أنه أمر نبوي وتوجيه قيادي ينبع عن تفكير مسبق دراسة وتخطيطا ، فدعا صلى الله عليه وسلم إلى العناية بالأرض وخدمتها زراعة وفلاحة ، فقال : (من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فإن أبى فليمسك أرضه)¹

وأكد البعد الإيماني والعبادي للعمل الزراعي حين قال - كما جاء في حديث الباب - : (ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)²

قال ابن حجر: (وفي الحديث فضل الغرس والزرع والحض على عمارة الأرض ، ويستنبط منه اتخاذ الضيعة والقيام بها ، وفيه فساد قول من أنكر ذلك من المتزهدة)³

و دعا إلى إحياء الموات من الأراضي ، وجعل المكافأة لمن نجح في ذلك أن يتملك هذه الأرض : عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من أعمر أرضا ليست لأحد فهو أحق)⁴

و نظم عقود هذا النوع من العمل بما يحفظ حق كل الأطراف وو بما لا يعطل الأرض عن الإنتاج والعطاء:

فأجاز المزارعة بشرط ما يخرج من الأرض - ولو كان هذا العقد مع غير المسلمين - : عن ابن عمر رضي الله عنهما : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى خبير اليهود على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شرط ما يخرج منها)⁵

¹ - صحيح البخاري ، كتاب الحرث والمزارعة - باب : ما كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يواسي بعضهم بعضا في الزراعة والثمرة (2172) . وصحيح مسلم - كتاب : البيوع - باب : كراء الأرض (2863) .

² - صحيح البخاري ، كتاب الحرث والمزارعة - باب : فضل الزرع والغرس إذا أكل منه (2152) . صحيح مسلم - كتاب : المساقاة - باب : فضل الغرس والزرع (29) .

³ - فتح الباري (6/5) و (41/5 - 42) .

⁴ - صحيح البخاري - كتاب : الحرث والمزارعة - باب : من أحيا أرضا مواتا (2167) .

⁵ - صحيح البخاري - كتاب : الحرث والمزارعة - باب : المزارعة مع اليهود (2331) ، وصحيح مسلم .

- كتاب : المساقاة - باب : المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع (1551) .

كما أجاز المزارعة بالدينار والدرهم : عن رافع بن خديج قال : حدّثني عمالي أنهم كانوا يكرون الأرض ، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم بما ينبت على الأربعاء أو شيء يستثنيه صاحب الأرض ، فنهى صلى الله عليه وسلم ن ذلك ، فقلت لرافع : كيف هي بالدينار والدرهم ؟ فقال رافع : ليس بها بأس بالدينار والدرهم .¹

ولكنه نهى عن المزارعة الفاسدة : عن رافع بن خريج رضي الله عنه قال : (كنا أكثر أهل المدينة حقلا ، وكان أحدنا يكري أرضه ، فيقول : هذه القطعة لي وهذه لك ، فربما أخرجت هذه ولم تخرج هذه فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم)² .

- وها هو ابن خلدون رحمه الله ، يؤكد القيمة الحضارية للعمل بأنواعه - ومنه العمل الزراعي - فيقول : (المعاش : وتجارة ، وفلاحة ، وصناعة ، فأما الإمارة فليست بمذهب طبيعي للمعاش ، وأما الثلاثة الأخرى ، فهي وجوه طبيعة المعاش ، والفلاحة متقدمة عليها جميعا لبساطتها وفطريتها ، وأما الصناعات فهي ثانيتهما ومتأخرة عنها ، لأنها مركبة ، وتصرف فيها الأفكار ، ولهذا توجد في أهل الحضرة الذي هو متأخر عن البدو ، ثان عنه ، وأما التجارة ، وإن كانت طبيعية في الكسب فالأكثر منه طرقها ومذاهبها إنما هي تحيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع ، لتحصل فائدة الكسب عن تلك الفضلة)³

- العمل الصناعي :

إن من قرأ كتاب الله تعالى قراءة متأنية ، وتأمل في تلك الإشارات والدلائل الحضارية سيجد عجبا ، ليرسخ اعتقاده أنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنه كلام الله الذي يخاطب الإنسان في كل عصر ومصر ، كائنا ما كان موقعه أو زمنه .. ! .

● **صناعة المعادن** : لو تأملنا في السورة رقم (57) لوجدنا أن الله تعالى سمى هذه السورة (الحديد) ، إشارة على عظمتها وأهميتها في حياة الإنسان ، وفي الآية (25) من هذه السورة نقرأ

¹ - صحيح البخاري - كتاب : الحرث والمزارعة - باب : كراء الأرض بالذهب والفضة (2176) .

² - صحيح البخاري - كتاب : الحرث والمزارعة - باب : ما يكره من الشروط في الزراعة (2164) .

³ - المقدمة ، دار الشعب ، القاهرة ، ص 34 .

الآية الكريمة : { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }

أي : (أنشأنا وخلقنا الحديد : { فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ } : الكراع والسلاح والجنّة ، و قوله : { وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } مثل استخدامه في صناعة السكين والفأس والإبرة ونحوه)¹

وأخبرنا تعالى عن داود عليه السلام ، وكيف الآن له الله تعالى الحديد : قال تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ }²

قال ابن كثير : (يخبر الله تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه السلام أن صيّر له الحديد يشكله كما يشاء)³ .

1 - تفسير القرطبي (261/17) .

2 - سورة سبأ : (1) .

3 - تفسير ابن كثير (527/3) .

● السِّبَاكَة¹ : وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من العمل الصناعي في قوله تعالى:

{ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا } {93} قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا } {94} قَالَ مَا مَكِّيٌّ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا } {95} آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا } {96} فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا } {97} { الكهف²

فقد رتب ذو القرنين عمله في خطوات كما قام بتوزيع العمل على مجموعات: (وإذا علمنا أن درجة انصهار النحاس 1.83 م ، وأن درجة انصهار الحديد النقي تماما 1539 م)³ .
أي أن درجة انصهار المعدنين مختلفة تماما ، وهذا يستلزم بالطبع أن يسبق انصهار الحديد النحاس ، وهذا الذي فعله ذو القرنين .

قال سيد قطب رحمه الله :

(... فجمعوا له قطع الحديد ، وكومها في الفتحة بين الحاجزين ، فأصبحا كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم بينهما : { حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ } وأصح الركام بمساواة القمتين } قَالَ انْفُخُوا { على النار لتسخين الحديد } { حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا } كله لشدة توهجه واحمراره { قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا } أي نحاسا مذابا يتخلل الحديد ، ويختلط به فيزيده صلابة ، وقد استخدمت هذه الطريقة حديثا في تقوية الحديد ، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف من مقاومته وصلابته وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين ، وسجله في كتابه الخالد سبقا للعلم البشري الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله)⁴

وأما في المدرسة النبوية فقد مارس أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم أنواعا شتى من الصناعات

¹ - (سبك المعادن وغيرها : إذابتها) مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي / دار الحديث : القاهرة . (د-ت)

ص 284 .

² - سورة الكهف : (93-97) .

³ - الحديد في الخامات والمعادن لمصطفى عبد الموجود / مكتبة العهد الجديد بالفعالة (د-ت) ص 33 .

⁴ - الظلال (2293/4) .

فكان منهم (الحدّاد) كخبّاب رضي الله عنه ، قال : (كنت قيناً في الجاهلية ، وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه ، فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فقلت : لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث. قال : دعني حتى أموت فسأوتي مالا وولدا فأقضيك¹

قال ابن حجر : (وأصل القين : الحدّاد ، وقال الزجاج : القين : الذي يُصلح الأسنة ، والقين أيضا : الحدّاد)² .

وكان منهم (النّساج) : إذا احترق المسلمون الأوائل فن النّسج وعملوا به وكانوا يُهدون من (إنتاجهم) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : جاءت امرأة ببرة ، قال : أتدرون ما البردة؟

فقيل: نعم ، نعم هي الشملة منسوجة في حاشيتها ، قالت : يا رسول الله إني نسجتُ هذي بيدي أكسوكها ، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها : فخرج إلينا وإنها إزاره ، فقال رجل من القوم : يا رسول الله أكسنيها ! فقال: (نعم) فجلس النبي صلى الله عليه وسلم في المجلس ثم رجع فطواها ثم أرسل بها إليه ، فقال له القوم : ما أحسنت ، سألتها إياه لقد عرفت انه لا يرد سائلا، فقال الرّجل : والله ما سألته إلا لتكون كفني يوم أموت . قال سهل : فكانت كفنه³

سورة الحديد ...!!؟

هل ثمة أكثر دلالة من ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها ، هل ثمة أكثر إقناعا لنزعة التحضّر والإبداع والبناء والتطبيق ، التي جاء

¹ -صحيح البخاري ، كتاب : البيوع – باب : ذكر القين والحداد (1949) . صحيح مسلم – كتاب : صفة القيامة والجنة والنار – باب : سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح (3..5) .

² - فتح الباري (372/4) .

³ - صحيح البخاري، كتاب الجنائز – باب : من استعدّ الكفن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم (1198) .

الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكيته في قلب العالم من هذه الآفة التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده ، وعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً عن الحديد : " البأس الشديد " متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكري ، و" المنافع " التقنية التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في مجالات نشاطه وبنائه " السلمي " ، وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن ، في مسائل السلم والحرب ، وأنه غداً في عصرنا الزاهن هذا وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوة الدولية سلماً وحرماً .

إن الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع أن ترهب أعداءها بما ينتجها هذا الخام من مقدرة على التسليح الثقيل، وتستطيع أيضاً أن تخطو خطوات تقنية واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها ! ؟

إننا يجب أن نلتفت هنا إلى ذلك التداخل والارتباط الصميمين في آفة الحديد ، بين إرسال الرسل وإنزال الكتب بينهم ، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس ، وبين إنزال الحديد ثم التأكيد على أن هذا كله ، إنما يجيء لكي يعلم الله (من ينصره بالغيب) و(إن الله قوي عزيز) !

إنها العقيدة التي تعرف كيف تشد الإنسان إلى أعماق الأرض ، وتدفعه إلى التنقيب فيها من أجل إعمارها وحمايتها ، وإن المسلم لن تحميه وتنصره إلا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والتقدم والنصر .

وإنه بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعال هذا ، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحركة الجهاد الدائمة ، ويختار - بدلاً من ذلك - موقع الفرار والانتظار الإتكالي لمعونة الله، فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته ، وسوف يُهزم لا محال ما دام قد أشاح عن هذا النداء القرآني الذي يكاد يصرخ بأعلى نبرة أنه بدون الاعتماد الواعي ، المسؤول ، الخبير ، على مصادر القوة والبأس ، فلن يكون هناك " نصر " ولا " حماية " للموازن والقيم العادلة التي جاء الدين لتنفيذها في الأرض ، حتى ولو حبس المؤمنون أنفسهم في المساجد السنين الطوال ، ليكون ويتضرعون .

إن الدعوة لقيام " مجتمع إسلامي تكنولوجي " ، وبدء عصر "تكنولوجيا إسلامية " إنما هو استمرار طبيعي لموقف الإسلام المفتوح من معطيات العلم في آفاته .

إن " التكنولوجيا الإسلامية " التي ترتبط - بطبيعة الحال - بخلفتها الإيمانية تُعد " ضرورة مُلحة"

ليس فقط على مستوى الجماعة الإسلامية نفسها ، ولكن على مستوى البشرية عامة ، لأنها ستعرف كيف تتحرك وتنضبط على هدى القيم الدينية والإنسانية القادمة من عند الله ، فتكون حقا في خدمة الإنسان الذي عانى الكثير من تكنولوجيا الكفر ، والعرقية ، والأنانية ، والعصيان¹

إن قضيتنا الإسلامية قضية حضارية ، تستلزم مشروعا حضاريا ، وهي أبعد من كونها مجرد وصول إلى الحكم ، وأبعد من كونها مهمة علمية أو إغاثية ، أو إصلاحا اجتماعيا .

و مثلما حرص التوجيه النبوي الكريم على التأصيل لقيمة العمل ، فإنه أصل أيضا لقيمة الإتقان في نفوس المسلمين وذلك عملا على الارتقاء بمستوى الأداء الإسلامي لكل عمل وقول .

وتعليقا على حديث الإتقان الوارد في الباب (إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح...) يقول صاحب كتاب "حسن السلوك": (وإنما ذكر صلى الله عليه وسلم القتلة والذبح لأنهما الغاية من الفاعل في أذى الحيوان ولا يبقى بعدهما للإحسان وجه . فإذا كان مأمورا بالإحسان في فعل ما هو الغاية في الأذى ، فكيف بغير ذلك؟!) ، فالإحسان مأمور به على كل حال)² .

وقال ابن دقيق العيد : (وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد كثيرة)³ .

¹ - انظر : الوسيط في الحضارة الإسلامية (373- 374)

² - حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك لمحمد بن محمد عبد الكريم الموصلبي الشافعي (ت774هـ) - دراسة وتحقيق وتعليق الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد - ص (151) .

³ - شرح النووي على صحيح مسلم (1.7/13) .

وقال ابن حجر الهيتمي : (وهذا الحديث قاعدة من قواعد الدين العامة ، فهو متضمن لجميعه ، لأن الإحسان في الفعل هو إيقاعه على مقتضى الشرع كما مر . ثم ما يصدر عن الشخص من الأفعال إما أن يتعلق بمعاشه وهو سياسة نفسه وبدنه وأهله وإخوانه وملكه وباقي الناس ، أو بمعاده وهو الإيمان الذي عمل القلب ، والإسلام الذي هو عمل الجوارح . فمن أحسن في هذا كله وأتى به على وفق السداد والشرع ، فقد فاز بكل الخير وسلم من كل ضير)¹ .

ومن ملامح المنهج النبوي في التربية الإبداعية والترقي بالأعمال إلى أسمى المراتب ، أنه صلى الله عليه وسلم كان يربي أصحابه على روح التأمل إلى خلق الله في كونه وأبداع في صنعه ، فكان يلفت نظرهم على الجمال والإتقان الربانيين في مخلوقاته ومصنوعاته ، وهو ما يعبر عنه الخطاب القرآني غالباً ب(التحسين): ففي (خلق الإنسان) نبه القرآن الكريم إلى الإبداع في خلقه ، فقال تعالى: { وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ }² .

و في (خلق الكون) نبه القرآن إلى دقة صنعة الباري عز وجل وجمالية خلقه :

{ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَإِلَيْنَا رَوَّاسِي وَأُنْبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْجٍ بَهِيجٍ {7} تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ {8} } ق . { أَمْنَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ دَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ } النمل 6.

فأينما قلب الإنسان بصره وجد جمال الصنع وبديع الخلق ..!

{ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } البقرة (117)

لذلك تركزت الدعوة الإسلامية على إعداد وتكوين الصفوة والنخبة وتهيئتهم ليكونوا كفاءات في خدمة أمتهم ، من خلال الاعتماد عليهم في حركة البناء والإعمار والترقي نحو آفاق التمكين وإعزاز الأمة والدين .

¹ - الأربعين حديثاً النوويية بشرح ابن دقيق العيد (ت7.2هـج) ، ص(72) .

² - فتح المبين لشرح الأربعين لأحمد بن حجر الهيتمي (974هـج) ، ص(162) .

(فالمتميّزون ركائز أساسية وضرورية لكل مجتمع متقدّم ، فهو ينتجون المعرفة الإنسانية ويطورونها ويطوعونها للتطبيق ، وهم الأمل في حلّ المشكلات التي تعيق التّقدم الحضاري ، وهم القوّة الدافعة نحو التّقدم ويتم أداء هؤلاء المتفوقين في سياق اجتماعي يحيط بالفرد في مراحل عمره المختلفة ، فإمّا أن يعمل هذا السياق الاجتماعي على تشجيع وتسهيل الأداء الإبداعي فينميّه ويدفعه للظهور ، أو يعيق ظهوره ويمنع استمراره، و تتمثل ضخامة الخسائر في الشروة الإنسانية في أطفال بالغين لا يجدون تشجيعاً على إظهار هوايتهم.

ونظراً لأننا نعيش في عصر يتّسم بالتّفجر العلمي والمعرفي والتطور التقني والتغيّر والتقدم المتسارعين ، فإنّ دول العالم المتقدم تتسابق للسبق في ميدان التقدم في مختلف مجالات الحياة ، وهنا يبرز دور العملية التربوية المنظمة والمخططة في تنمية الإبداع وتطويره ، وذلك من خلال توفير المناخ الملائم للتّربية الإبداعية التي تجعل من المتعلم متميّزاً في فكره وقوله وعمله¹ .

وفي هذه المرحلة الحرجة من حياة أمتنا، وفي هذه الأزمنة الرديئة التي طوّقتنا فيها أغلال العجز والتخاذل والوهن، حين صار (فشل البرامج) و (رداءة الأعمال) و (تحكّم المهازيل) سمة غالبية على أمتنا ، حتى صرنا نجزم بأنّها مرحلة (القصة) التي تتداعى علينا فيها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها .

في هذه المرحلة الحرجة لا انعتاق لنا من هذا الحال الذي يدمي القلب إلّا بالعمل جدياً وعملياً على " كَس " كل مظاهر الرّداءة ودواعيها ومشجعيها ، لأنّ الأمم التي بلغت شأواً في التحضر والرّقي والقوة والمنعة - حتى أوصل بعضها إلى الغطرسة والتجبر الذي لم يعرف له التاريخ مثيلاً - لم تبلغ هذه القوة والمنعة إلّا بشنّ حرب على " الرّداءة " !..!

وها هو وزير التعليم الأمريكي (بترييل بل) سنة (1983م) يقول :

(لو أن قوة معادية فرضت تعليماً متدنياً على الشعب الأمريكي لاعتبر ذلك مدعاة للحرب !)²

¹ -سورة غافر : (64) .

² - انظر: تربية الموهوبين والمتفوقين - لماجدة السيد عبيد ، ص(14) .

وعلى هذا الأساس فإن الذين يعدّون رداءة التعليم بمثابة إعلان حرب ضدهم يجعلنا نتساءل :

ماذا عسانا نقول ونحن نرى الرّداءة في كل شبر وفي كلّ ثغر من ثغور حياتنا؟!

إنه إعلان بالفناء إن لم نستعجل النهوض والقيام!..!

إن بلوغ الأعمال ذروة الكمال ، وتأصيل سلوك (الإتيقان) في التركيبة النفسية والعقلية والوجدانية للمسلم المعاصر أمر في غاية الأهمية ، لأن ذلك تخلص للعقلية المسلمة التي أصبحت تعتقد بأن الرّداءة (قدر) محتوم علينا ، بينما (الجودة) و(الإبداع) و(الإتيقان) هو سلوك (الآخرين) من غير العرب والمسلمين ..!! .

ولنأخذ هذا المثال ، نقارن به حالنا بحال دولة (كاليابان) : كيف كانت ، وماذا أصبحت ؟ وكيف كنّا وماذا أصبحنا ؟

(اليابان تلك الدولة التي خرجت من الحرب العالمية الثانية خائرة القوى بعد ضرب أرضها بالقنابل الذّرية ، لم تعد العدّة لردّ الصّاع صاعين بل تذكّرت مرسومها أصدره زعيمها " طوكوجاوا" ينصّ على تعلّم فنون السلام يعدّ مساويا تماما لتعلّم فنون القتال!..!

وكان هذا وفاء لعهد الإمبراطور " ميحي " لشعبه حين قال : إن المعرفة سوف يبحث عنها ويقتني أثرها في كلّ أنحاء العالم ...

ودارت الأيام ، فإذا بنا نبتعد عن الدين وعن منابع عقيدتنا الإسلامية السمحاء ، ونستبدل بعزّة المؤمنين ذلّة الجاهلين ، ويعلم الرّجال خزعبلات أشباه الرّجال ، ويختفي من تاريخنا اسم صلاح الدين ، والعز بن عبد السّلام ، لتظهر أسماء أفراد لا لون لهم ولا عزيمة ولا جهاد ، وتبدأ أوروبا التي حملت معها شرقنا العربي المسلم كثيرا من الأفكار عن العلم . وعمّا يصنعه في عقول النّاس وفي حياتهم ومستقبلهم ، وتقول جامعة هنا ، ومدرسة هناك ، ويرصّف طريق هنا ويبنى مستشفى هناك ، وتدعم مؤسسات الدولة بأفراد ينهلون من العلم ويعملون به، فيتقدّمون ويتقدّم المجتمع كله من حولهم ..

ويذهب أبنائنا إلى هناك ، فيبدو على بعضهم علامات الدهشة والتعجب والانبهار حين يجدون عربة ترش الماء في الشوارع طالبا لشيء من النظافة ، ونسوا ما كان يجري في بغداد في عصرها الذهبي من أعمال للنظافة كانت غيبا بالنسبة لأوروبا آنذاك ..!، ورأوا مستشفيات تداوي المرضى ومن اهتمام بشؤونهم ..! ورأوا طلاب العلم يسعون إلى مظانّه ينهلون من منابعه الصّافية فأعجبوا ونسوا ما كان يجري في دار الحكمة في بغداد من ترجمة وتأليف ، وما كان يجري في الأزهر من حلقات للدرس على يد شيوخ علماء ، ومن إنفاق على طالبي العلم ..!

ومن بين أنقاض هيروشيما وناكازاكي خرج العملاق الياباني برأسه مرّة ثانية ، و أفرغ جهده وقوته وعزمته في أمور أخرى غير الحرب : في العلم والتربية والإبداع والتقدم ، بإصرار ، بعد توفير ما كان ينفقه على الحروب ووضع في قنوات العلم والتربية ، فتنفق على التربية من ميزانيتها القومية ما نسبته (12%)¹ .

أنّ التربية الإبداعية هي الوسيلة الأساسية لكل ابتكار وإتقان وإحكام وتقدم في الميادين العلمية والصنّاعية والإدارية والمهنية ، ولن نستطيع اليوم السير مع ركب التقدم في الاختراعات الحديثة ، والسبب أننا لا نربي رجالا وشخصيات يمتازون بالقدرة على الإبداع والاختراع والابتكار في مجال تخصصاتهم .

ولا بد لنا من الخروج من دائرة التهمة بأنّ التربية الإسلامية لا تكوّن رجالا وشخصيات عندهم روح الاختراع والإبداع والابتكار، وإنما تكوّن شخصيات ليس عندهم سوى روح الالتزام بالماضي لأنّهم يعتقدون أنّه ليس في الإمكان أبدع ممّا كان ..!! ولهذا فهم عاجزون عن الإتيان بمجديد ، وانعدمت عندهم روح الإقدام والإبداع ، وتشكّلت شخصياتهم بقالب لا يستطيعون الخروج عنه² .

إنّ التربية الإبداعية هي الملاذ الذي يعصمنا من حالة الانحدار والانحدار التي تلبّسنا بها ، فهي الوسيلة العلمية العملية التي تخرجنا من هذا التخلف الحضاري المقيت الذي وقعنا فيه .

¹ - دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي ، إعداد مجموعة من الباحثين طبع بيت الحكمة - بغداد - الطبعة الأولى - أيار - مايو (2011م) ص (226) .

² - التربية في اليابان المعاصرة ، تأليف ادواردن ر.بوشامب ، ترجمة : د/محمد عبد العليم مرسى ، ص(1).

فالمسلمون ملزمون بتنمية أنفسهم وتطويرها ليقولوا قولاً سديداً ويعملوا عملاً صواباً ،
وينجزوا أمورهم بإتقان ، وإلا فإنَّ سنَّة الله في كونه وخلقه لن تترك الكون والحياة بيد المهازيل
ولو كانوا مسلمين ..! فستدخل سنَّة (الاستبدال) حينئذ لتأخذ مكانها : { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا
يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } محمد38¹ .

وقد اعتبر سعيد حوى رحمه الله وجود أهل الاختصاص المهرة واحدة من بين شروط -
رأها- لتحقيق ارتقاء حضاري ، فقال :

- (ونمو مدنية ما وارتقاؤها لا يتوقف على ثقافتها دائماً ، بل يتوقف على عوامل كثيرة ،
قد يكون إحداها الجانب الثقافي وقد لا يكون ، وهذه العوامل هي :
- استغلال الطاقات الكونية الظاهرة والباطنة استغلالاً تاماً .
 - الاستفادة من الوقت استفادة تامة .
 - وجود الإنسان المختص الماهر في اختصاصه .
 - كفاية الاختصاصات لكل حاجات الأمة .
 - حكم يؤمن استقراراً .

وعلى مقدار نمو هذه الجوانب وتكاملها يكون رقي مدنية ما ، وبمقدار ضمور هذه
الجوانب أو بعضها يكون ضمورها)² .

وقد سبق في التأصيل لذلك عالم الاجتماع المسلم ابن خلدون رحمه الله حين جعل
قيمة الإنسان مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنوعية عمله وشرفه بين الأعمال ، فقال : (إن الكسب الذي
يستفيد به البشر إنما هو قيم أعمالهم ، ولو قدر أحد عطل عن العمل جملة لكان فاقد الكسب
بالكلية ، وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته ، وعلى
نسبة ذلك نمو كسبه أو نقصانه)³ .

¹ - انظر : جوانب التربية الإسلامية الأساسية ، د/مقداد يالجن ، ص (485)
² - إعداد الكفاءات وحسن توظيفها في ضوء السنة النبوية، د/ نور الدين بن يربح ، ص(2.6).
³ - " الإسلام " لسعيد حوى ، ص (551) .

إن الأمة لا تقوم على أنصاف المتعلمين ولا على أشباه المتخصصين، لأنّ الإتقان لا ينبع من بين يدي هؤلاء ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، بل إن تمكين هؤلاء هو تمكين للرداءة والهشاشة .

حتى لقد قيل: (نعوذ بالله من نصف فقيه ونصف طبيب، فإن الأول يفسد الدين، والثاني يفسد البدن !!)¹ .

وإن قصورنا في عملية (الإتقان) هو ما جعلنا في مؤخرة الأمم من حيث الجودة والتصنيع ، ولو ألقينا نظرة من حولنا إلى ما نستهلكه - مثلا - من أجهزة إلكترونية وغيرها سنُصاب بالذهول حين نجد أنّ مساحة عطائنا في هذه (الصناعات) لا يكاد يُذكر ..!!
وسنذكر هنا مثالين ، أحدهما تفوّق غيرنا في الاستثمار البشري والسيطرة على (العقول) (المتقنة) . والثاني هو تفوقهم في الصناعات الدقيقة والحساسة .

● **الأول:** أننا إذا تأملنا غير المسلمين وجدناهم يمتلكون من القدرات البشرية التي تصنع (الإتقان) وتبدع في الجودة، وهم أصحاب العقول والمهارات الفائقة، إذ تشير الدراسات بأن توزيع الباحثين والعلماء والمهندسين يتركز على النحو التالي :

¹ - المقدمة (39) .

(12،6%) فقط من هذه العقول والقدرات البشرية هو ما تملكه الدول النامية) ومعظم – إن لم نقل كل – الأمة الإسلامية ضمن الدول النامية) ، مقابل (87 %، 4) مما تملكه الدول الصناعية من هذه العقول ¹ .

● **الثاني:** أن غير المسلمين قد استأثروا بأعلى النسب في الإبداع والتصنيع في أدق وأعمد الصناعات ، بينما عطاء المسلمين يكاد ينعدم ، والجدول التالي يوضح ذلك : ²

المجال التقني	نسبة حصة الدول المتقدمة
التقنية الجوية	1، 99%
حاسبات	98%
إلكترونيات	9، 95%
تقنيات المعلومات	3، 93%
طيران	9، 96%
المعدات الكهربائية	5، 96%

إننا بحاجة إلى إعادة قراءة لكثير من تعاليم ديننا التي لم نحسن فهمها ولا توظيفها ، ولو أدركنا البعد الحضاري لدعوة القرآن إلى إتقان الأعمال لما آل بنا الأمر إلى هذه الحال !!..

لو فهمنا وفهمنا أجيالنا بأن إتقان الأعمال عبادة لله رب العالمين ، وسلوك حضاري رفيع ، كما فهمها وفهمها الفضيل بن عياض حين عبّر عن (أحسن الأعمال) بأنها ما كانت على (إخلاص) و (صواب) ، إذا فسّر قوله تعالى : { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } (الملك:2)

¹ – مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة (45/1) .

² دراسات في التنمية البشرية (225) .

بقوله (أحسن العمل : أخلصه وأصوبه ! قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وما أصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً)¹ .

إنّ الرداءة والفضوى والتخلف قد صارت لنا علماً! ولازلنا نبحث عن أهل " التخصص " و"الإلتقان " ليتولوا دورهم في إعادة بعث هذه الأمة ، وما بقي لنا سوى هذه الجيوش من (الخطباء) الذين لا زالوا (يخطبون) عن (ماضي الأمة) في الوحدة والأخوة وعزة الفرد المسلم !! بينما الحاخام اليهودي الذي يصنع (حاضر) أمته ويبنى شخصية (الفرد) اليهودي المعاصر ، يضحك منهم ولا يعبأ بخطبهم وأشعارهم ومعلقاتهم ..!!

وتمر السنون ولم يُطبق من الإسلام " بعض البعض " ولم نوحّد العرب ولا المسلمين ، ولم نمنع تقهقرهم إلى دويلات عبس وذبيان وأيام بعث وحليمة ..!! ولا أقمنا الدولة الإسلامية ، ولا نقلنا جماهير الأمة من الغياب الاجتماعي في العصبية إلى الحس الاجتماعي بالأخطار والتحديات ، ولا أصلحنا النفوس ولا الاقتصاد ولا الاجتماع ، واستبدلنا (لغو) الخطابة وحمية المعلقات السبع بدل العلم المتخصص!! واستهنا بأهل المعرفة وخلطنا العلم والفكر بالخطابة والشعر!! ، وكان من ثمار ذلك كله أن أصبح الفشل قاعدة في حياتنا ، نتوقعه وننتظره في جميع محاولاتنا ومشروعاتنا ، حين تصورنا أن مشكلات حياتنا يمكن أن يحلها (خطيب) بليغ أو (شاعر) مصقع نوصله إلى البرلمان أو الوزارة ، أو يعلو منبراً أو يتصدّر حفلاً ..!!

وانتهى بنا الأمر إما إلى الارتقاء في زوايا اليأس والقنوط – أي الانتحار الجماعي – وإما إلى التردّي في مهاوي التطرف الأعمى والتزمت المتشنج² .

¹ -المصدر نفسه (2.9) .

² - الفتاوى – كتاب السلوك (173/1-174) – .

التخطيط¹ في مدرسة النبوة

الأصل في كل من ينتسب للإسلام - فردا كان أو جماعة أو مؤسسة أو دولة - أن يتحرك في ضوء كاشف ، بحيث تظهر الغاية أمامه فلا تغيب عنه ، وهو يشقّ طريقه في مسيرته الإسلامية ، ذلك أن هذا الدين العظيم ذا المنهج الشامل لكل مناحي الحياة ونشاطاتها ، يُلزم المسلم المنتسب إليه بالتحرك باعتباره جزءا من كل ، وواحداً من جماعة ، و يدعو إلى نبذ الفوضى والارتجالية في مسيرته لأن "الفوضى" هي "الفيروس" المخرب لكل مساهمة أو بناء يسعى إلى تحقيق نهضة الأمة وإعادة مجدها.

وبذلك يكون العمل الجاد على وضع تخطيط إسلامي يعيد بناء عالم الأفكار (يوفّر) الطاقات الإسلامية ويهندسها ويضعها في مجالاتها المجدية . يكون من أوجب الواجبات ، وإلا تددت كلّ الجهود بفعل (ثقافة) الفوضى والارتجال ...!

والحق أننا لو أردنا تأصيلا شرعيا لمبدأ التخطيط من السنّة النبوية، لوجدنا مساحة الاستدلال تمتدّ من أوّل أيام النبوة إلى آخر عهده صلى الله عليه وسلم بالدنيا ، وذلك لأن تبليغ هذا الدين وتربية الأمة به وبناء الدولة على أسسه ما كان ليتم إلا وروح التخطيط والتنظيم وحسن التدبير تسري في كلّ حركة من هذا البلاغ النبوي العظيم .. !

ولذلك سنختار من حلقات المسار النبوي الجليل تلك الحلقة التي ربطت بين مرحلتي (التكوين) و (التمكين) ، لنسلط الضوء عليها استكشافا لملامح التخطيط النبوي فيها .

تلك هي حلقة (الهجرة إلى المدينة) وما أحاط بها من حكمة التخطيط النبويّ : فلما جاء الإذن الربّاني لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بالهجرة ، وذلك من حديث ابن عبّاس رضي اله عنها قال :

¹ - هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس . د/ ماجد عرسان الكيلاني

(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فأمر بالهجرة وأنزل عليه : { وَفَلَّ رَبُّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا } الإسراء.8. ¹ .

بدأ التحرك النبوي لتحقيق هذا الهدف العظيم بفكر تخطيطي يتناسب وعظمة الهدف .
وكانت أبرز ملامحه ما يلي :

1- اختيار الصَّاحِبِ الْأَمِينِ (أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) :

فقد اختار صلى الله عليه وسلم في هجرته هذه واحدا من أهل الكفاءة العالية التي تميّزت بصفاء المعدن وصفاء الولاء لله ورسوله ، وكل صفات (الصفوة) الصافية التي تُبنى عليها الأمم :

عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل: (من يهاجر معي؟ قال : أبو بكر الصديق) ² .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : بينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة ، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال ابو بكر : فدى له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر..!

قالت : فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم واستاذن له ، فدخل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر :

(أخرج من عندك) فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله . قال : (فإني قد أذن لي في الخروج) . فقال أبو بكر : الصَّحَابَةُ (أي أريد الصحبة) بأبي أنت يا رسول الله !

¹ - وقد عرّف أهل الاختصاص التخطيط بأنه(وضع الأهداف المرحلية وتحديدها ورسم المسار - والمسارات البديلة - لتحقيقها ، بواسطة الإمكانيات المتاحة والمتوقعة) . انظر : التخطيط لحسن شيخ عثمان ، الدار الشامية - الأردن : الطبعة الأولى. ص 14

و قيل هو: (تجميع المعلومات وافتراس توقعات في المستقبل من أجل صياغة النشاطات اللازمة لتحقيق الأهداف،و هو يضمن ارتباط النشاط بالأهداف وذلك بتوجيه الجهود نحو الوصول إلى النتائج المرجوة) انظر : دليل التدريب القيادي (1.1) .

² - أخرجه الترمذي في سننه (3139) في التفسير ، وقال :حديث حسن صحيح ، والحاكم في مستدركه (3/3) وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نعم) . قال أبو بكر : فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحتي هاتين قال صلى الله عليه وسلم : (بالثمن)¹ .

2- استخلاف علي رضي الله عنه لينام في فراشه تمويها للمشركين:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : ستر علي نفسه ، ولبس ثوب النبي صلى الله عليه وسلم ثم نام مكانه ، وكان المشركون يرمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ألبسه بردة ، وكانت قريش تريد أن تقتل النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا يرمون علياً ويرونه النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد لبس برده ، وجعل علي رضي الله عنه يتضور فإذا هو علي ..! فقالوا : إنك للئيم إنك لتتضور ، وكان صاحبك يتضور ولقد استنكرناه منك²

(وكان تصرف النبي صلى الله عليه وسلم بنوم علي في فراشه وتسجيته ببرده جزءاً من مسؤولية القائد في إنجاح خطته ، وذلك بالتمويه والتعمية على عدوه ، وقد نجحت هذه الجزئية في التمويه نجاحاً تاماً رغم الاحتمالات الكبرى لكشفها ... ورغم ثقة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحماية ربه له ، فهذا لم يمنعه من أن يأخذ الاحتياط البشري الذي يملكه ، وفي الوقت الذي أعمى الله تعالى عنه الأبصار أثناء خروجه ، شاءت إرادته تعالى أن يحرس نبيه صلى الله عليه وسلم لا بمعجزة ولكن بعالم الأسباب في تخطيط البشر ..

¹ - مستدرك الحاكم (3/ 5) ، وقال : صحيح الإسناد والمتن ، ووافقه الذهبي وقال صحيح غريب .

² - صحيح البخاري (الفتح) (231/7-232) (39.5) ، وصحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي ، تقديم د . عمر سليمان الأشقر ، وراجعته د . همام سعيد ، دار النفائس ، الطبعة الرابعة (167-168) .

و ما أحوجنا إلى أن ندرك واجبنا في الإعداد لمواجهة العدو رغم اعتمادنا الأول والأخير على الله تعالى ، لا أن نحيل تقصيرنا وضعفنا وتهاوننا على القدر ، ونتوجع على عدم نصر الله تعالى لنا ، ونحن المسؤولون عن ذلك)¹ .

3- اللّجوء إلى الغار :

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه (ركبا فانطلقا حتى أتيا الغار وهو بثور فتواريا فيه)² .

و تظهر التضحية والولاء للصّاحب والرّفيق أبي بكر رضي الله عنه حين قال لنبيه وقائده قبل دخول الغار : (مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار ، فدخل واستبرأ حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الحجر ، فقال : مكانك يا رسول الله حتى استبرئ لك الحجر ، فدخل واستبرأ ثم قال : انزل يا رسول الله ، فنزل)³ .

يقول العلامة صفى الرحمن المبار كفوري :

(ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن قريشا ستجد في الطلب ، وأن الطريق الذي ستّجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي المتّجه شمالا ، فقد سلك الطريق الذي يضاده تماما ، وهو الطريق الواقع جنوب مكّة ، والمتّجه نحو اليمن ، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتّى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور ، وهذا جبل شامخ ، وعر الطريق ، صعب المرتقى ، ذا أحجار كثيرة ..)⁴ .

ويقول الأستاذ منير الغضبان :

¹ -الحاكم في مستدرکه (4/3) ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه وقد رواه أبو داود الطيالسي وغيره عن أبي عوانة بزيادة ألفاظ ، ووافقه الذهبي.

² - انظر : المنهج الحركي للسيرة النبوية لمنير الغضبان - مكتبة المنار : الأردن : الزرقاء - الطبعة الأولى (189-188) .

³ -فتح الباري (389/7) .

⁴ - أخرجه الحاكم في مستدرکه (6/3) ، وقال : حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين -لولا إرسال فيه - لم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وقال : صحيح مرسل .

(وإذا توقعنا تخطيط مكة للقضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسوف يكون طريق المدينة مرصودا من عدد غفير من الفرسان حتى يُحال دون وصوله إليها ، وإن التفكير البشري سينصبّ طبيعياً على رصد لأنه هو هدف الرسول صلى الله عليه وسلم وفي القبض عليه إنهاء للمعركة كاملة معه ، فاتجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار فوّت على العدو مخططه وأحبطه..

وتبدو عظمة التخطيط أكثر حين نعلم أن غار ثور في جنوبي مكة وليس على طريق المدينة ، حيث احتمالات الرصد¹ .

4- ترك العيون في مكة :

وقد اختار لها صلى الله عليه وسلم واحدا من ذوي النباهة والفتنة : عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما ، الذي وصفته عائشة رضي الله عنها بقولها بأنه (غلام شاب ثقف لقن)² ... ذرية بعضها من بعض !! .. !

تقول عائشة رضي الله عنها :

(فمكثنا ثلاث ليال ، يبيتُ عندهما عبد الله بن أبي بكر - و هو الغلام الشاب الثقف اللقن - فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح من قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وعاه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام)³ .

إذا لابد من التعرّف مباشرة على أسرار العدو ومخططاته، بحيث تصل أوّلاً بأوّل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون متابعة تنفيذ الخطة قائما على خبرة بالواقع ، لا عن ظنّ و حدس يخطئ ويصيب .

¹ - الرحيق المختوم للشيخ صفي الدين الرحمن المبارك كفوري - دار الوفاء للطباعة والنشر - مصر (194) .

² - المنهج الحركي للسيرة النبوية (19) .

³ - فتح الباري (232/7) .

وكما كانت القيادة أعلم بواقع العدو وأدرى بأسراره ، ولها في صفوفه من ينقل إليها كلّ تخطيطاته، كلّما كان ذلك أنجح لها في تنفيذ خُططتها ومخططاتها¹ .

5- إعفاء الأثر:

تقول عائشة رضي الله عنها :

(... ويرعى عليهما عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر - منحة من غنم فيريجها عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما - حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس ويفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث)² .

(وإذا كان اقتفاء الأثر خير دليل لمعرفة وجودهما في الغار ، خاصة وأسماء وعبد الله يوميا يأتیان إلى الغار ، فكان غنم عامر بن فهيرة هو الذي يأتي على آثار أقدامهما فيعفي الأثر ويزيل الاحتمال)³ .

إننا اليوم -بحاجة على اقتداء فاعل ورسين بهذا الفكر التخطيطي النبوي ، وذلك لأنّ الفوضى واللامبالاة قد طوّقت حياتنا مثلما يطوّق السوار المعصم !..

(لقد أصبحت الحاجة ملحة لعملية التقنية الثقافية ، وأصبحنا أحوج من أيّ وقت مضى إلى الذين يحملون عقل المهندس ، ومبضع الطبيب ، وحرقة الوالدة ، على مستوى الفكر والثقافة ، ليقوم بعملية الإخلاء والإملاء ، أو عملية الهدم المسبوقة بمخطط واضح ومدروس لعملية البناء ، لأن بعض الناس يحسنون الهدم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، لأن البناء يستدعي التآني والصبر والزّمن والتّضحج ...

وكلها متطلبات لا تقتضيها عملية الهدم ، وتبقى المشكلة في بناء العقلية القادرة على البناء وفي تصويب مسار هذه القدرة ...

إن العقل الذي لا يتحقّق بالرؤية الشمولية الكاملة لا يمكنه الترتيب ، لانعدام الرؤية الدقيقة لسلم المشكلات التي تواجه عالم المسلمين ، وبالتالي فلا يمكن له القيام بعملية "

¹ - المصدر نفسه (232/7) .

² - المنهج الحركي (191-19) .

³ - فتح الباري (232/7) .

البرجة " و لا يمتلك القدرة على التصنيف وإعطاء كلّ مشكلة علاقتها ومكانها الذي تستحق والطاقة التي تحتاج)¹ .

ولئن كان بعض المعاصرين تستهويهم مصطلحات (التخطيط) و(التنظيم) ... فاعتقدوا أنّها من خصائص الفكر المعاصر ، فإنّهم لو عادوا إلى العقلية الإسلامية الأولى لوجدوا (التخطيط) و(التنظيم) مؤصلاً عندهم فكراً وعملاً ...

فقد أصل لها ابن منظور رحمه الله في لسانه ، حين ذكر بأن التخطيط والتدبير هو (أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته . والتدبّر والتفكّر فيه)² .

وبأن (التنظيم من نظم ... ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك والتنظيم مثله .. والنظام ما نظمت فيه الشيء ، والجمع أنظمه وأناظيم ونظم)³ .

وزادها ابن باجة توضيحاً حين قال : (ة التدبر هو خطة الإنسان العاقل في المجتمع الذي يسوده العقل)⁴ .

وأسلمها الحديث الشريف : (يا أبا ذر : لا عقل كالندبير ، ولا ورع كالكفّ ولا حسب كحسن الخلق)⁵ .

وفي كلّ ذلك دلالة واضحة بأنّ التدبير خصيصة إنسانية مرتبطة بما ميّز به سبحانه وتعالى الإنسان و بما أنعم عليه من عقل وفكر ، وهو ما يميز الإنسان عن الحيوان ، ولذلك يرى ابن خلدون أنّ الأفعال منها ما هو (منتظم مرتّب ، وهي الأفعال البشرية ، ومنها غير منتظم ولا مرتّب ، وهي أفعال الحيوانات غير البشر)⁶ .

¹ - المنهج الحركي (191-192) .

² - حول تشكيل العقل المسلم للدكتور عماد الدين خليل - المقدمة (15) .

³ - لسان العرب (945/1) .

⁴ - المصدر نفسه (578/12) .

⁵ - تدبير المتوحّد لابن باجة ، تحقيق معن زيادة - دار الفكر : بيروت (17) .

⁶ - سنن ابن ماجه - كتاب الزهد باب الورع والتقوى (479/4) . قال البوصيري في زوائد ابن ماجه: (هذا إسناد ضعيف لضعف الماضي بن محمد الغافقي المصري) (584) (1433) . وهو أبو مسعود ضعيف من التاسعة مات سنة ثلاث وثمانين ومائة كما في التقريب (449) .

وفي رأي ابن خلدون أن هذا التنظيم والتخطيط هو الذي جعل الحيوانات مسخرة للإنسان وفي طاعته ، فالفكر الذي يتميز به الإنسان يجعله يدرك الترتيب الطبيعي الموجود بين الأشياء والحوادث ، فيراعي هذا الترتيب في أفعاله ، فإذا قصد الإنسان إيجاد شيء من الأشياء تتبع الترتيب الذي ينظم الحوادث ذات العلاقة ، فيتتبع الأسباب والشروط التي توصل للشيء ، فلا يجعل المتقدم متأخراً ولا المتأخر متقدماً ، وحتى وصل إلى السبب الأخير والشرط الأساسي - الذي قد يصله من خلال مرتبتين أو ثلاث أو أكثر - شرع بالعمل الذي يوجد بالنهاية ذلك الشيء الذي قصده في البداية ، وبذلك يكون أول الفكر آخر العمل ، وأول العمل آخر الفكر ، فلو فكر المرء في إيجاد سقف انتقل بفكره إلى الحائط الذي يدعمه ثم إلى الأساس الذي لا بد منه ، حتى يقف الحائط عليه ، وبهذا يكون الأساس آخر الفكر ، ولكن عندما يبدأ العمل فهو يبدأ بالأساس ثم بالحائط ثم بالسقف وهو آخر العمل ..!¹ .

إن الخطاب القرآني الذي نادى أهل الإسلام " بأولى النهي " و " أولى الألباب " إنما خاطبهم بذلك ليحرك فيهم الانتباه إلى أعمال العقل ، ليحفزهم على النباهة والفتنة التي من أهم ثمراتها وصفاتها (التخطيط) و(التدبير) ..

وها هو الكندي يؤكد بأن " التدبير والنظر في الأمور " هو من خصائص الأذكىاء لا الحمقى والمغفلين ، يقول رحمه الله :

(النظر في الأمور نجاة من الغرر، والعزم في الأمور سلامة من التفريط وداعية الظفر ، والتدبير والتفكير ينتجان عنه الفتنة ، ويكشفان عن الحزم ..

ففكر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل تقدم .

الناس حازمان وعاجز ، فأحد الحازمين : الذي إذا نزل به البلاء لم ينتظر وتلقاه بجيلته ورأيه حتى يخرج منه ، وأحزم منه : العارف بالأمر إذا قبل فيدفعه قبل وقوعه ، والعاجز في تردد بائر لا يأتمر راشداً ولا يطيع مرشداً)² .

¹ - المقدمة (839) .

² - أنظر المصدر نفسه (839) .

ويشير الجاحظ إلى أنّ أهل الحكمة والعلم لم يفضّلوا على غيرهم إلا بما تميّزوا به من عقلية تخطيطية بعيدة عن الفوضى والارتجال ، وما يعقبها - لأصحابها - من مفاجآت لم تكن في الحسبان .

يقول في رسالة إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي داود الذي ولّاه المتوكل على قضاء بغداد :

(... واجب على كل حكيم أن يحسن الارتياح لوضع البُغية ، وأن يتبيّن أسباب الأمور ، ويمهد لعواقبها ، فإنما حمدت العلماء بحسن الثبوت في أوائل الأمور واستشفافهم بعقولهم ما تجيء به العواقب فيعلمون عند استقبالها ما تؤول به الحالات في استدبارها ، ويقدر تفاوتهم في ذلك تستبين فضائلهم ، فأما معرفة الأمر عند تكشّفها ، وما يظهر من خفياتها ، فذلك أمر يعتدل فيه الفاضل والمفضول والعالم والجاهل)¹ .

بل إنّ الجاحظ يُدع في التأكيد على أهمية (التخطيط) ليصارع بحقيقة ناصعة مفادها بأن الفاشلين في التخطيط لديناهم فاشلين تلقائياً في التخطيط لحماية دينهم والعكس صحيح . يقول رحمه الله :

(أصول أمور التدبير في الدّين والدنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملة في الدّين فسدت فيه المعاملة في الدنيا ، وكلّ أمر في معاملات الدنيا لم يصح في الدّين .

ولذلك قال الله عزّ وجلّ : { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا } الإسراء 72 ، وقال ابن عباس في تفسيرها : (من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبرت أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا ما انتقل إلى الدّين ، فإنما ينتقل بذلك العقل ، فبقدر جهله بالدنيا يكون جهله بالآخرة أكثر . لأنّ هذه شاهدة وتلك غيب ، فإذا جهل ما شهد فهو بما غاب أجهل)² .

1 - كتاب " المصنّف " للكندي أبو بكر بن موسى (ت 557هـجري)، تحقيق عبد المنعم عامر وجاد الله احمد . سلطنة عمان ، وزارة التراث القومي والثقافة (15/1) .

2 - رسائل الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون - القاهرة - مكتبة الخانجي (دون سنة طبع) ، (4 / 69) .

وها هو يُبدع ثانية في إظهار قيمة التخطيط ، وإن خالفت النتائج - أحيانا - مُراد المخطط فذلك لا يُلغى أبداً أهمية التخطيط ، إذ أن نجاح الجاهل سيء التدبير في الوصول إلى ما لم يصل إليه المدبر لا يعني إعدام قيمة التخطيط ، فيستطرد قائلاً :

(... واعلم أن المقادير ربّما جرت بخلاف ما قدّر الحكماء ، فنال الجاهل في نفسه المختلط في تدبيره، مالا ينال الحازم الأريب الحذر .! ، فلا يدعونك ما ترى من ذلك إلى التضييع والاتكال على مثل تلك الحال ، فإن الحكماء قد أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر ، فجاءت المقادير بخلاف ما قدّر ، كان عندهم أحمد رأياً وأوجب عُذراً ممّن عمل بالتفريط ، وإن اتّفتحت له الأمور على ما أراد)¹ .

ويُرشد الغزالي رحمه الله المسلمين إلى إحكام التخطيط في إفناء الأعمار حتى لا تضيع ضياع الأنعام ..! فيقول :

(لا ينبغي أن تكون أوقاتك مهمة فتشتغل في كلّ وقت بما أتفق كيف أتفق ..! بل ينبغي أن تحاسب نفسك وترتب أوردك ووظائفك في ليلك ونهارك ، وتعين لكل وقت شغلاً لا تتعداه ولا تؤثر فيه سواه ، فبذلك تظهر بركة الأوقات ، فأما إذا تركت نفسك سدى مهملاً إهمال البهائم لا تدري بماذا تشتغل في كلّ وقت ، فينقضي أكثر أوقاتك ضائعاً ، وفاتك عمرك، وعمرك رأس مالك وعليه تجارتك وبه وصولك إلى نعيم دار الأبد في جوار الله تعالى)² .

وينقل ابن خلدون رحمه الله نصيحة طاهر بن الحسين لولده عبد الله حين قال له :

(... وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فان لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذب أخّرت ، و اعلم أنّ اليوم الذي مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخّرت عمله اجتمع عليك عمل يومين ، فيشغلك ذلك حتى تمرض عنه ، وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك وجمعت أمر سلطانك ... وانظر عمّالك الذين بحضرتك وكتابتك ، فوقت لكل منهم في كل يوم وقتاً يدخل فيه بكتبه ، ومؤامرتة وما عنده من حوائج عمّالك وأمور الدولة ورعيّتك ، ثم فرّغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك

¹ - رسائل الجاحظ (1 / 99) .

² - المصدر نفسه (1 / 121) .

، وكّرر النظر فيه والتدبر له، فما كان موافقا للحق والحزم أمضه ، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه إلى المسألة عنه والتبّت منه)¹ .

إن سرد الشواهد على التخطيط عبر العصور الإسلامية، أمر يصعب حصره، وذلك لأنه لا تخلو حياة أي إنسان من مشكلة صغيرة أو كبيرة يتصدّى لها بالتفكير والتدبير ، ويحلّها على وجه يرضيه ، فكيف بحياة القادة من خلفاء وأمراء وولاة وسلاطين؟ وكيف قامت دول وزالت آخر هل يمكن أن يكون ذلك قد حدث مصادفة؟! ز كيف جهزت الجيوش وحققت ما حققت من انتصارات؟ فهل كان ذلك محض مصادفة دون تخطيط؟ وكيف شيدت المساجد والمدارس والقصور والجسور والأسوار حول المدن وحُفرت قنوات الريّ .. إلى آخر ذلك من المظاهر الحضارية آنذاك؟!

فهل يُعقل أن يكون قد حدث كل ذلك بشكل عشوائي غير مخطط تخطيطا دقيقا؟!² .

إن أعمال التخطيط هو معلم من أهم معالم كمال الفهم لهذا الدّين ..

يقول الدكتور يوسف القرضاوي :

(ومن النَّاس من يتصوِّرون أو يصوِّرون الدّين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل ، و هذا من أثر الفكرة القديمة التي جعلت العلم مقابلا للإيمان ، فهما ضدّان لا يجتمعان ، أو خطّان متوازيان لا يلتقيان !..

والحقيقة أن فكرة الدّين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل ، ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده ، وبعبارة أخرى من حياته لموته ومن دنياه لآخرته ، ولا بد له أن يخطط لحياته

و يضع لنفسه منهاجا يوصله إلى الغاية ، وهي رضوان الله ومثوبته ، وفي القرآن الكريم قصة جعلها الله عبرة لأولي الألباب ، وهي قصة نبي الله يوسف عليه السلام ، وفيها يذكر القرآن الكريم لنا مشروع تخطيط للاقتصاد الزراعي لمُدّة خمسة عشر عاماً ، لمواجهة أزمة غذائية عامّة ،

¹ - بداية النهاية ، أبو حامد الغزالي ، شركة عيسى البابي الحلبي وأولاده - القاهرة - مصر (16-17) .

² - المقدمة (554) .

عرف يوسف بما ألهمه الله وعلمه من تأويل الأحاديث ، أنّها ستصيب المنطقة كلّها ، وقد اقترح يوسف عليه السلام مشروع الخطة ووكل إليه تنفيذها ، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها .

قال : { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ } {47} ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ {48} ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ } {49} { (يوسف 47-49) }¹ .

واليوم ! ونحن في العشرية الأولى من القرن الواحد والعشرين ، قرن الثورة العلمية التي هزّت أركان الدنيا بمكتشفاتها ومخترعاتها ، يتعاضم الواجب علينا تجاه ديننا أمام التحديات الجسام التي تحيط به .

اليوم وقد ذهب زمن البدائية يظهر التخطيط كأهم سلاح لا يجوز التفريط فيه .

فلا بد أن يتطوّر الدعاة مدنيا ويواكبوا الأساليب التكنولوجية المتجدّدة السريعة المتطوّرة إذا أرادوا أن ينجحوا في خطة المخالطة الاجتماعية .

لقد نقل العلم الحديث الدعوة الإسلامية إلى موقف ذي حدّين :

تنظر الواجب المتعيّن على الدعاة في تطوير أساليبهم وأدواتهم فتستكبره حتى لتظنّ ذلك معظلة ، ثم تنظر في عين الوقت المنح والفوائد التي يمكن أن نجنيها من ذلك ، فترى جانبا إيجابيا يُغريك بتطوير عناصرك وأدواتك بما يوافق آخر المخترعات .

إلا أن الداعية اليقظ لا يحلّ له أن يبقى حائرا متردداً بين شعور الإعضال وبسمة التفاؤل إزاء هذا المفترق ، وإنما عليه أن يحسم الأمر سريعا ، وأن يقبل التحدي ويشرع في التحديث ومواكبة الاكتشافات التي أصبحت تتوسع من موسم إلى موسم إلى موسم² .

إن يوما يصبح فيه " التخطيط " و " التنظيم " منهجا حياتيا ظاهراً عند المسلمين في كلّ المواقع ، وخاصّة عند القيادات وأصحاب التوجيه ، هو اليوم الذي يبشر بقدم مرحلة الإقلاع

¹ - القيادة التربوية في الإسلام لمفيدة محمد إبراهيم - دار مجدلاوي - عمان ، الطبعة الأولى (285) .

² - الرّسول والعلم (47-49) .

الحضاري التي تخلص أمتنا من هذه الفوضى والرداءة التي استحكمت فينا ، لأنّ من فشل أن يخطّط يكون قد خطّط لفشله !..

3. الشورى في مدرسة النبوة

- روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه : (أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان .

قال: فتكلّم أبو بكر فأعرض عنه ، ثم تكلمّ عمر فأعرض عنه ، فقام سعد بن عبادة، فقال : إيانا تريد يا رسول الله !؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا لأن نخيضها البحر لأخضناها¹ ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد² لفعلنا ، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فانطلقوا...)

التخريج: أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد³.

- كما روى ابن إسحاق خبر المشورة فقال : (...فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشيروا عليّ أيها الناس !- إنما يريد الأنصار، وذلك أنّهم كانوا عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله ! بإبراء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك ما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوّف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلاّ ممن

1 - منهجية الدعوة (21) .

2 -يعني الخيل ، أي : لو أمرتنا بإدخال خيولنا في البحر وغشيتنا فيه لفعلنا انظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي (22) - الهامش .

3 - اسم منطقة ، صحيح السيرة (22) - الهامش .

دهمه بالمدينة من عدوّه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّه من بلادهم ، فلمّا قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل ! قال : فقد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ ، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنّنا لصبرٌ في الحرب ، صدق عند اللقاء لعلّ الله يريك منا ما تقرّ به عينيك ، فسر على بركة الله .

قال: فَسَرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه، ثم قال: (سيروا وأبشروا فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم) .
التخريج: أخرجه ابن هشام في السيرة¹ .

- روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس بن حصن وكان من النّفر الذين يدينهم عمر ، وكان القرّاء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً).

¹ - صحيح مسلم - كتاب : الجهاد - باب: غزوة بدر (1779) ، وسنن أبي داود (2681) ، ومسند أحمد (188/3)

التخريج : أخرجه البخاري ¹ .

- روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما خرج عمر إلى الشام وبلغه خبر الطاعون فيها قال: (ادع لي المهاجرين الأولين ، فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ... ، فقال : ارتفعوا عني . ثم قال: ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان . فقالوا نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء ...)

التخريج : أخرجه البخاري ² .

الشرح: إن المتأمل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته الشريفة يجد المحطات الكثيرة التي تستوقفه فيها أجواء " الشورى " التي كان يمارسها النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم مع صحابته الكرام رضي الله عنهم لأن رسول الله وهو يربي الأمة وقادتها لم يكن يريهم على التسليم دون بصيرة، ولا أشعرهم يوماً أنهم " أتباع " من الدرجة الثانية ..! وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو النبي المرسل يعيش بينهم ويقتسم معهم مشاق الحياة وأعباءها .

ويوم خرج المسلمون إلى بدر وهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً³، كان معهم سبعون بعيراً يتعاقبون على ركوبها ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو لبابة وعلي بن أبي طالب يتعاقبون على بعير واحد ، فأرادا أن يؤثراه بالركوب فقال: (ما أنتما بأقوى مني ، و لا أنا بأغنى عن الأجر منكما)⁴ .

¹ - أخرجه ابن هشام في السيرة (614/1-615) بإسناد صحيح وقد صرح ابن إسحاق بالسماع، وأخرجه

الطبراني وإسناده حسن كما في المجمع (73/6) ، وابن كثير في البداية والنهاية (262/3-263) وقال: وله شواهد من وجوه كثيرة فمن ذلك رواية البخاري والنسائي وأحمد . قال د/ أكرم ضياء العمري : ويشير ابن كثير على رواية البخاري ورواية الإمام احمد : الفتح (87/7) ومسند أحمد (259/5) (3698) طبعة أحمد شاکر ، نقلًا عن : السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري (359/2) - الهامش

² - صحيح البخاري - كتاب الاعتصام - باب قوله تعالى: { وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ } (113/9)

³ - صحيح البخاري - كتاب: الطب - باب: ما يذكر في الطاعون (5728) .

⁴ - شرح النووي على مسلم (84/12) ، وقال البخاري في روايته: (بضعة عشر وثلاثمائة) فتح الباري (29/7)-

بهذه الروح المتواضعة السّمية التي لا تفصل بين قيادة وجندية في تحمّل الأعباء والمشاق
تربّي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة خبر إقبال أبي سفيان لم يفصل
في الأمر بالخروج ولم يُعط الأوامر دون استشارة - ولو فعل لأطاعوا - ولكنه صلى الله عليه
وسلم أراد أن يزرع فيهم فكر "الشورى" ونبذ الاستبداد .

والرواية التي ذكرها الإمام مسلم في صحيحه وكذا تلك التي أوردها ابن إسحاق في سيرته
توضحان بكل جلاء كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمارس الشورى بين أصحابه .
قال ابن حجر:

(ويمكن الجمع بأنّ النبي صلى الله عليه وسلم استشارهم في غزوة بدر مرتين : الأولى
بالمدينة أوّل ما بلغه خبر العير مع أبي سفيان ، وذلك بيّن في رواية مسلم ولفظه : (أنّ النبيّ
صلى الله عليه وسلم شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان والثانية كانت بعد أن خرج)¹ .

إنّ مشاورّة القائد للآخرين تعني (اختبار ما عند كل واحد منهم واستخراج ما عنده)² .

والشورى هي الوسيلة التي لا تحرم الأمة من خبرة أولي المعرفة فيما لا يستبدون برأي ولا
يقصون صاحب علم وخبرة ، وإنّ رجلا في قدر ومنزلة سيدنا عمر رضي الله عنه ما منعه
ذلك أن يستبدّ أو يعتدّ ، وإتّما طوّق حوله خيار الأئمة وصلحاءها وجعل منهم أهل استشارة ،
وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبّانا كما ورد في حديث الباب ،
وكان يوصي بقوله : (واستشر في أصحابك الذين يخشون الله)³ .

وتعليقا على حديث مشاورّة سيدنا عمر رضي الله عنه للصحابة الكرام في أمر
الطاعون ، يقول ابن حجر رحمه الله : (فيه الترجيح بالأكثر عدداً ، والأكثر تجربة ، لرجوع
عمر لقول مشيخة قريش مع من انظم إليهم ممن وافق رأيهم من المهاجرين والأنصار ، فإن

¹ - مسند أحمد (411/1) (39.1) ووقال الحاكم في مستدرکه (2/3) : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي
، وقال الهيثمي: (رواه أحمد والبرّار وفيه عاصم بن بهدلة وحديثه حسن ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح) مجمع
الزوائد (69/6) .

² - فتح الباري (288/7) .

³ بدائع السلك في طبائع الملك (32) .

مجموع ذلك أكثر من عدد من خالفه من كل من المهاجرين والأنصار ، ووازن ما عند الذين خالفوا ذلك من المهاجرين والأنصار من مزيد الفضل في العلم والدين ، مع ما عند المشيخة من السنن والتجارب ، فلما تعادلوا من هذه الحيثية ، رجح بالكثرة ¹ .

وتأمل الخطاب القرآني وهو يدعو المسلمين إلى اعتماد الشورى منها وأسلوبها ، فيقول تعالى : { وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } الشورى 38

وقوله تعالى : { فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } آل عمران 159

وهاهو الإمام القرطبي رحمه الله ينقل لنا قول ابن عطية الذي بين :

- بأن الشورى من خصائص هذا الدين .

- وأنه لا خير في مستبد ، ومن كان كذلك فالواجب تنحيته .

- وأن واجب ولادة الأمور عدم تهميش ذوي الخبرة ، وذلك باستشارة كل فريق في مجال تخصصه .

فقال :

(والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام وعزائم الأحكام ، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب ، وهذا ما لا خلاف فيه ، وقد مدح الله المؤمنين بقوله : { وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } قال ابن خويز منداد : واجب على الولاة مشاوراة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدين ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ووجوه الكتّاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها .. ، قال بعضهم : شاور من جرب الأمور ، فإنه يعطيك من رأيه ما وقع عليه غالبا ، وأنت تأخذه مجانا ..)² .

وما دامت صفة " البشرية " تبقى قائمة في الإنسان مهما علا كعبه في علم أو دين أو خبرة ، فإنه بذلك يبقى في أمس الحاجة إلى استشارة غيره من ذوي العلم والخبرة ، ومن استبد

¹ - الخراج للفاضي (أبو يوسف) - ص (15) .

² - فتح الباري (298/12) .

برأيه اعتدادا بعلمه أو قوته ، فكأنه جعل لنفسه المرتبة فوق مرتبة نبيّ هذه الأمة ..! حاشى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ..!

قال ابن تيمية رحمه الله :

(لا غنى لولي الأمر عن المشاورة ، فإن الله أمر بها نبيّه صلى الله عليه وسلم فقال : {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} فغيره صلى الله عليه وسلم أولى بالمشاورة ..! ¹ .

(وتظهر فائدة المشاورة عندما تتم مع أهل الخبرة والاختصاص والمعرفة والإطلاع ، الذين تتوافر لديهم دراية فنية وبصيرة في الأشياء وإدراك في الأمور ممّا يوسّع الأفق ويفتح المدارك وينبه الفكر ، فيتّجه إلى جادة الصّواب ويختار الصحيح من علم ومعرفة .

ويزداد هذا الأساس أهمية وخطورة عندما يتعلّق الأمر بالأمة والدولة ومصالح المجتمع ، فيفرض على الرّاعي أن يتعمّق في البحث ، وأن يستطلع آراء النّاس الذين يتعلّق الموضوع بهم ، وقد يكونون أدرى منه به ، وأعرف بمصالحهم من غيرهم ، فتقتضي المسؤولية أن يرجع إليهم ، وأن يستعين برأيهم ، وأن يشاركهم في الأمانة واتخاذ القرارات والأحكام لتحقيق المصالح .. ويتضمّن أساس الشورى مظاهر المساواة بين الأفراد ، وعدم التعالي عليهم ، والاعتراف بما عندهم ، ومن ثمّ تُعمل النتائج والأفكار على كاهل الجميع الذين تشاوروا وقرروا ، لأنّ الإنسان ضعيف بذاته قوي بأخيه لا يستطيع الإحاطة بجوانب الأمور المختلطة ، وبالمشاورة يتجنب عثرات الطريق ومزالق الحياة) ² .

ولأنّ الاستبداد ما أفلح قط في قيام دنيا أو خدمة دين ! فقد كان المنهج النبوي بحقّ هو منهج التربية على الشورى واستكشاف طاقات الآخرين ، في الوقت الذي عمدت فيه الاستبداديات القاصرة على إلغاء وإقصاء كلّ ذي رأي حصيف .

وقد أبدع اللواء الرّكن محمود شيت خطاب رحمه الله في بحثه " الشورى العسكرية في الإسلام " حين عرض تلك الموازنة بين الشورى النبوية والشورى عند القادة المحدثين .

¹ الجامع لأحكام القرآن (249/4) و(161/4) .

² - الفتاوى (387-386/28) .

فقال رحمه الله :

(فقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم مشاورون يلازمونه ويستعين بأرائهم في مختلف الظروف والأحوال، وكان على رأس هؤلاء المستشارين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما تماما كرؤساء الدول والقادة العامين للدول مستشارون يلازمونهم ويستعينون بأرائهم .

وكان للنبي صلى الله عليه وسلم مستشارون يختصون بقسم من الصحابة ، فقد كان يستشير أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب في الأمور التي تخص المهاجرين ، وكان يستشير سعد بن معاذ وسعد بن عباد في الأمور التي تخص الأنصار ، وكان له مستشارون في القضايا التعبوية ، كالحباب بن المنذر ، ومستشارون في القضايا السوقية كسلمان الفارسي ، وكان له مستشارون في الطرق ومجاهلها وهم الأدلاء . وأسماءهم مذكورة في كتب السيرة النبوية ، وكان له مستشارون في نقل المعلومات كحذيفة بن اليمان وله مستشارون في مختلف الأمور العسكرية وغير العسكرية تذكرهم كتب السيرة بالتفصيل ، تماماً كما لرؤساء الدول والقادة العامين للدول مستشارون في مختلف الأمور العسكرية وغير العسكرية .

وكان مستشارو النبي صلى الله عليه وسلم من المؤمنين برسالته ، وكانت مشورتهم يريدون بها وجه الله ، ولا يريدون بها السمعة ولا المكافأة ولا الترقية ولا الأوسمة ، ولا شيئاً من أمور الدنيا المادية والمعنوية ، إنها مشورة صادرة عن القلوب العامرة بالإيمان العميق .

أمّا المستشارون المحدثون ، فهم موظفون من موظفي الدولة ، يتقاضون أجراً على مشورتهم ، ويريدون بها السمعة ولا المكافأة ولا الترقية ولا الأوسمة ، وغير ذلك من أمور الدنيا المادية والمعنوية فهي مشورة في واقعها صادرة من الجيوب المحبة للمادة ومتاع الدنيا ، وشتان بين الشورى الصادرة عن القلوب والشورى الصادرة عن الجيوب ، وهيئات أن ترقى شورى العقول بالمادة إلى مستوى شورى العقول العامرة بالإيمان !..

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يكتفي بالشورى ، بل يشجع أصحابه على المبادرة بإبداء مشورتهم ، وكان من وسائله التشجيعية على غرس روح هذه المبادرة في أصحابه ، الأخذ

بمشورة المبادرين والدعاء لهم ، ووضع مشورتهم في حيز التنفيذ ، ولو كانت مخالفة لرأيه الصريح

..

ولا أعرف رئيساً أو قائداً عاماً في الوقت الراهن ، يشجع رجاله على المبادرة بالشورى ، ويأخذ بها ويطبّقها إذا كانت مخالفة لأرائه الصريحة ..! وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتنازل عن رأيه الصريح من أجل آراء المستشارين ، والمتعارف عليه أن يقرّ المستشارون رأي الرئيس أو القائد ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ويتنازلوا عن آرائهم من أجل إبراز رأيه وإقراره ..!!

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعاود استشارة أصحابه الذين أخطأوا في مشورتهم من قبل ، ويعفو عن المخطئين ويستغفر لهم ، أمّا الرئيس أو القائد في الوقت الراهن ، فلا أقل من أن يتخلّى عن الذين استشارهم فأخطأوا ، هذا إذا لم يُضَف إلى تخلّيه عن استشارتهم التشنيع والعقاب ..!!¹ .

ومن خلال الجدول التالي تظهر عملية الشورى التي مارسها النبي صلى الله عليه وسلم في المجال العسكري ، مع بيان موضوع الاستشارة وزمنها² .

¹ - الشورى في الإسلام ، د/ محمد مصطفى الزحيلي (112/3-1121) .

² - الشورى في الإسلام - بحث اللواء الركن محمود شيت خطاب رحمه الله ، ص (953-954)

التسلسل	الغزوة	التاريخ	موعد الاستشارة	المستشار أو المستشارون	النتائج
-1	بدر الكبرى	رمضان من السنة الثانية الهجرية	في مسيرة الاقتراب	المهاجرون و الأنصار	ضمان مشاركة الأنصار في القتال
			قبل نشوب القتال	الحباب بن المنذر	تبديل معسكر المسامين إلى معسكر مناسب وبادر الحباب بإبداء المشورة
			قبل نشوب القتال	سعد بن معاذ	بناء العريش للنبي صلى الله عليه وسلم وكانت المبادرة بإبداء المشورة من سعد
			بعد المعركة	أبو بكر الصديق وعمر ابن الخطاب	أشار أبو بكر في إبقاء الأسرى، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمشورته

2-	أحد	شوال السنة الثالثة الهجرية	من قبل نشوب القتال	كان رأي أغلب المسلمين الخروج إلى أحد	أخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأي الأغلبية وخرج إلى أحد
3-	حمراء الأسد	شوال السنة الثالثة الهجرية	من قبل التحرك إلى القتال	أبو بكر الصديق وعمر ابن الخطاب	أشار بالخروج إلى حمراء الأسد فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم
4-	الخنديق	ذو القعدة من السنة الخامسة الهجرية	قبل نشوب القتال	سلمان الفارسي	أشار بحفر الخندق فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمشورته
			في أثناء القتال	سعد بن معاذ وسعد بن عبادة	أشارا بعدم إعطاء شيء من ثمار المدينة لغطفان ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمشورتهم

-6	خبير	المحرم من السنة السابعة الهجرية	في أثناء القتال	الحباب بن المنذر	1 .أشار بتبديل معسكر المسلمين فعمل النبي صلى الله عليه وسلم بمشورته .
			في أثناء القتال	الحباب بن المنذر	2 . أشار بقطع النخل ، فعمل النبي صلى الله عليه وسلم بمشورته .
			في أثناء القتال	أبو بكر الصديق	3 . أشار بالتوقف عن قطع النخل ، فعمل النبي صلى الله عليه وسلم بمشورته
-7	حنين	شوال من السنة الثامنة الهجرية	الجعرانة بعد توقف القتال	المسلمون	في سي هوزان، فكان المسلمون الاولون قد بادروا في التنازل عما بأيديهم من السبي، أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما المسلمون الجدد الذين حرصوا على سبيهم ، فعرضهم الرسول صلى الله عليه وسلم بما أرضاهم

اختيار معسكر جديد أكثر أمناً من المعسكر الأول، وانتقل المسلمون إلى معسكرهم الجديد	الحباب بن المنذر	في أثناء القتال	شوال من السنة الثامنة الهجرية	الطائف	-8
أشار بنصب المنجنيق ورمى حصن الطائف به ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمشورته	سلمان الفارسي	في أثناء القتال			
أشار بالانسحاب من الطائف ، فوافق النبي صلى الله عليه وسلم على مشورته .	نوفل بن معاوية الديلي	في أثناء القتال			
حرصوا على الاستمرار في القتال، فوافق النبي صلى الله عليه وسلم على ما أرادوا ، حتى وجدوا أنه لا مسوغ ولا جدوى من القتال ، فانسحبوا مستبشرين بالانسحاب .	قسم من المسلمين	في أثناء القتال			

-9	تبوك	رجب من التامة الهجرة	في تبوك بعد الوصول إلى الهدف	المسلمون	شاور النبي صلى الله عليه وسلم في التقدم من تبوك شمالاً، فأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعدم التقدم شمالاً فأقر النبي صلى الله عليه وسلم مشورة عمر .
			في تبوك تمهيدا للعودة إلى المدينة	عمر بن الخطاب	أذن النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين ان ينحروا ركا بهم ليأكلوها فأشار عليه عمر ألا ينحروا المسلمون ركا بهم لأنها خسارة لا تعوض وأن يجمع أرزاق المسلمين ويوزعها، فأقر مشورة عمر .